حياة ابن خلدون

ومُثل من فلسفته الاجتماعية

محاضرة القاها الاستاذ المحقق السيد محمد الخضر
في جمعية تعاون جاليات أفريقية الشمالية بالقاهرة

—٣—

تصنيف ابن خلدون تاريخه ومقدمته

ما برح ابن خلدون منقطعاً لبث العلم حتى بدا لابي حمو أن يبعثه سفيراً الى الذواودة ليراوضهم الى طاعته ويجمعهم على ولائه . فلبى طلبه في الظاهر وخرج وهو يسر في نفسه أن لا يعمل لهذا السبيل بعلة أنه أصبح يعز عليه بذل شيء من أوقاته في غير الوجهة العلمية . ولعله سئم التدخل في السياسة التي قد تلتوي به مع اهواء الامراء وتحمله على أن يسعى في استنجاد القبيلة لمن كان يغريها عليه

ولما وصل الى البطحاء ولى وجهه عن ناحية الذواودة جانباً ونحى عنانه الى أولاد عريف ، فأنزلوه بقلعة أولاد سلامة ، وأقام بينهم اربع سنين في جو هادىء ، وبيئة لا تجيش فيها مراجل الحسد ولا تنفث فيها الوشاية سما ناقعا. وفي هذه السنين — التي كانت مهبط السكينة وصفاء الفكر وارتياح الضمير — شرع في تأليف تاريخه الفائق ، ولذلك الحين أتم مقدمته على نسجها الحكيم وتحقيقها البديع

عودته الى وطنه

سلّ يده من كل شاغل ، وألقم فكره ندي الاستنتاج والتفقه في المقاصد العلمية والشؤون العمرانية حتى بلغ في مجالها شأوا لا يشق غباره ، فتاقت نفسه الى زيادة التوغل في أسرار العلم والاستفادة من كتب لا تنالها الايدي الا في الحواضر ؛ فراسل صاحب تونس أبا العباس بالعودة الى تونس التي هي مسقط رأسه ومسحب

ذيل شبابه ومجرى جياد أنسه ، فما تريث أن طلع عليه جواب السلطان يأذن له بالقدوم ويحنه عليه ، فانبرى يطوي الفيافي حتى أوى الى ظل عنايته وأنزله منزلة المغتبط بسابغات عزه ومظاهر كرامته

ظن ابن خلدون ـ منذ حط رحله بين قومه وسحب رداء العز في وطنه ـ أن الزمان صافحه بيد المصافاة وان الحوادث أصبحت تهاب أن تغشى ساحته ، فاذا تقريب السلطان له واستخلاصه جليساً يضرم في قلوب فريق من الناس نار الغيرة والحسد فلم يتمالكوا أن بانوا ينصبون له حبائل الوشاية ويهمسون في أذن السلطان بما يوغر صدره عليه . ومما تعلقوا به في أسباب الكيد به تخليه عن صوغ الشعر في مديح السلطان وزعموا لديه أنه لم يعن بمديحه كما عني بمديح سلاطين المغرب والاندلس استخفافا بمقامه وكفراناً لنعمته

وقد ضل هؤلاء عن سواء السبيل : فان العالم الاديب قد يهفو به نزق الشباب أو ينساق بحكم الضرورة الى مديح بعض الرؤساء حتى اذا بلغ في العلم أشده وخلع عليه التقدم في السن حلة السكينة والوقار عافت نفسه ذلك الفن المزري من الشعر وجمدت قريحته دون أن تنطف فيه بقطرة . فيجب على صاحب الدولة الرشيدة أن يكون على همة اسمى من أن تتشوف الى سفاسف الامور وأطهر من أن ترضي الذين أوتوا الحكمة أن يلقوا بأنفسهم في حضيض الملق والاستعطاف بل الاجدر لذكره والادعى لحمده أن يكون اكرام العلماء في نظره حتماً تقتضيه فضيلة العلم بنفسها

تقديم تاريخه الى صاحب تونس

فلجأه صديق له ـ كان أحد بطانة أولئك السعاة ـ بما يكيدونه به تحت ستار وكان قد اعتزم على ان يقدم للسلطان نسخة مما كمل من تاريخه . فانتهز الفرصة وأنشده ساعة اهدائه الكتاب قصيدة امتعها بذكر سيره وفتوحاته ونسج في

ذيلها الاعتذار عن انتحال الشعر بأسلوب بليغ . ويقول في هذا الاعتذار :

واليكها مني على خجل بها عذراء قد حليت بكل نفيس
لولا عنايتك التي أوليتني ما كنت أعنى بعدها بطروس
والله ما أبقت ممارسة النوى مني سوى رسم امرّ دريس
أخنى الزمان عليّ في الادب الذي دارسته بمجامع ودروس
فسطا على فرعي وروّع مأمني واجتث من روح النشاط غروسي
ورضاك رحمتي التي أعتدها تحيي مُنى نفسي وتذهب بؤسي

ابن خلدون في مصر

وما برحوا يركبون في السعاية به كل فن حتى شاهد أثرها في معاملة السلطان له فرام التخلص من مثار هذه الفتنة وابتغى الوسيلة الى ذلك باستئذان السلطان في السفر لأداء فريضة الحج ، وقدم الاسكندرية لمضيّ عشر ليال من جلوس الملك الظاهر على عرش الملك . ثم انتقل الى القاهرة وتصدى للتدريس بالجامع الازهر واتصل بالسلطان فأكرم مثواه وأعاد ليل غربته ووحشته صباح أنس وطمأنينة . وأولاه وظيفة التدريس بمدرسة القمحة ثم قلده خطة قضاء المالكية على وفق النظام المتبع لذلك العهد من اقامة قضاة على عدد المذاهب الاربعة يلقب كل واحد منهم بقاضي القضاة فتحرى بهذه الخطة صراطاً سويا ولم يدخر وسعا في العمل على اصلاحها وتجديد مادرس من معالمها ولم تأنف العامة الصرامة في اقامة الحق على وجهه الصريح ولم يعتد ذوو الجاه والشوكة من رجال الدولة اغلاق باب الشفاعة والتوسل في وجوههم . فتعاقد الفريقان على التظلم منه والتهويش عليه لدى السلطان بدعوى انه غير خبير بالتقاليد المعبر عنها بالمصطلح . وانضم الى هذه المحنة نكبته في أهله وولده اذ ابحروا من تونس ليلتحقوا به فغشيتهم ريح عاصف وهلكوا في البحر غرقا

وقف السلطان تجاه تلك الشكوى موقف الحكمة فجمع بين الحزم في السياسة وكرم الهمة ففصله عن الخطة تهدئة لثائرة الجمهور واستمر على مواصلته بالرعاية والانعام وفاء بحق العلم واقتناصاً لمفاخر يزدهي بها وجه تاريخه المجيد

ابن خلدون والوزير ابن زمرك

وبعد أن قضى ثلاث سنين عاكفاً على التدريس والتحرير خرج لقضاء فريضة الحج سنة ٧٨٩ وقفل راجعا الى القاهرة واتصل حين بلغ الينبع بكتاب يحتوي على شعر ونثر راسله به أبو عبد الله بن زمرك وزير السلطان ابن الاحمر صاحب غرناطة ، ولجودة نظمه وصفاء ديباجته بحيث يسوغ لنقاد الادب ان يضعوه بالمكان الاسمى من الشعر ويقضوا له بالسبق فى حلبة البلاغة رأينا من اللائق بهذه المحاضرة أن نحلي جيدها بطوق من فرائده ، ومما يقول في أوائل هذه القصيدة :

ويازاجري الاظعان وهي ضوامر ... دعوها ترد هِيماً عطاشاً على نجد
ولا تنشقوا الانفاس منها مع الصَّبا ... فان زفير الشوق من مثلها يعدي
براها الهوى برْيَ القداح وحطها ... حزون على صفح من القفر ممتد
عجبت لها أنَّى تجاذبني الهوى ... وما شوقها شوقي ولا وجدها وجدي
لئن شاقها بين العزيب وبارق ... مياه بغيء الظل للبان والرند
فما شاقني الا بدور خدودها ... وقد لحن يوم النفر في قضب ملد
وكم صارم قد سل من لحظ أحور ... وكم ذابل قد هز في ناعم القد
خذوا الحذر من سكان رامة انها ... ضعيفات كسر اللحظ تمنك بالاسد

واسترسل في هذا الطرز البديع والنسيب الساحر حتى تخلص الى خطاب ابن خلدون بقوله :

اليك ـ أبازيد ـ شكاة رفعتها ... وما أنت من عمرو لدي ولا زيد
بعيشك خبرني ولا زلت مفضلا ... أعندك من شوق كمثل الذي عندي

فكم ثاربي شوق اليك مبرح فظلت يد الاشواق تقدح من زندي
يقابلني منك الصباح بوجنة حكى شفقا فيه الحياء الذي تبدى
وتوهمني الشمس المنيرة غرة بوجهك صان الله وجهك عن رد
محياك أجلى في العيون من الضحى . وذكرك أحلى في الشفاه من الشهد

واطَّرد في هذا النسق المعبر عن الوداد المحض والشوق الطافح ، وبلوغ الشعر في جودته الى هذا الحد مما ينبه على رفعة منزلة ابن خلدون في نفس الوزير ابن زمرك ، اذ الشاعر وان كان مغلقا لا يطيل نفس الشعر ويرتقي في ابداعه الى هذا المظهر الا عن داعية تزعج في لجته وتأخذ بمجامع عنايته . وليست الداعية في هذا المقام سوى الاعجاب بكمال ابن خلدون والحنين الى حدائق آدابه الزاهرة

وبعد عودته الى القاهرة تقلد خطة القضاء مرة ثانية ثم عزل عنها ، وقد تولاها مراراً وبلغت ولايته لها ثم تخليه عنها منذ هبط مصر الى أن توفي نحو ست مرات.

ابن خلدون والطاغية تيمورلنك

وكان الملك الناصر فرج يسلك في رعايته والاقبال عليه بوجه البر والانعام مسلك أبيه الملك الظاهر ، واستصحبه في خروجه الى الشام أيام الفتنة التترية . وغشي ابن خلدون مجلس تيمورلنك في طائفة من الاعيان والقضاة ومكنه دهاؤه وبراعته في فن السياسة من افتتاح باب المخاطبة والدخول معه في حديث اصاب مواقع هواه وأخذ بمجامع لبه حتى أحرز لديه مكانة الرعاية والاكرام وحمله الاعجاب بسمو مداركه وكياسة منطقه على اصطفائه لنفسه والانقلاب به الى مقر ملكه ليكون شهابا ثاقباً في سماء دولته ودرة وضاءة في سلك علمائه

ولم تطب نفس ابن خلدون لان يحط في اهواء هذا الطاغية ويتطوح في مجاراته ان يدخل في شيعته . عمل تحت لوائه وتلطف في مخادعته باستئذانه في

العود الى مصر ليجمع أمره ويضم اليه أهله وكتبه فنفذت الخدعة وبلغ أمنيته فعاد الى القاهرة ومد بها طنب الاقامة الى أن أدركه أجله وهو في منصب القضاء لاربع بقين من رمضان سنة ٨٠٨ ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر. وقبره غير معروف شان من يوافيه الحمام في دار غربة أو يقبره قوم كسدت لديهم بضاعته الغالية وكلت أبصارهم دون الوصول الى مراميه السامية

السلطة الرابعة

الصحافة

مَلَكْتِ عِنانَ الفِكْرِ فهو أسيرُ وحَرَّرْتِ آمالاً عليهِ تسيرُ
فمَنْ شأنِكِ الضدّان يا خيرَ دولةٍ عليها أميرٌ سيّدٌ وأمير
تُصيخينَ للجمهور نزعةَ عاطف وتُوحين للجمهورِ كيف يصير
مهذبةٌ آناً ، وآناً طبيبة يُشار عليها مَرةً وتُشير
سياجُكِ عرفانٌ ، وتاجُك همةٌ ، وأوقعُ من بأس الجنودِ صرير
جيوشكِ أوراقٌ وعَينَ من الحجا سلاحا على الظُّلْم العتيّ يُغير
فان فاتكِ الاصلاحُ فهي خطيرةٌ من الشرّ تؤذى الحقّ فهو ضرير
فأنتِ ضياءُ الحقّ إنْ ضاع فاتَهُ نفوذٌ ولم يُنصفْ ذويهِ مصير

* * *

نشأتُ ببيتٍ فيه ظِلكِ وارفٌ ويغشاهُ نورٌ زِدتِهِ ويزورُ
فلا بدعَ أنْ يقضي الوفاءُ بمدحتي فمائيَ من باقي شعورِك نورُ